٣٩ ـ المصريون المحدثون

شمـــائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الثاني عشر ـــ السحر والتنجيم والكيمياء

تحدث الساحر إليّ وسألني إذا كنت أرغب في أن يرى الصبي شخصاً ما غائباً أو متوفى . فذكرت اللورد نلسون ؛ ومن الواضح أن الصبي لم يسمع عنه أبداً لأنه نطق اسمه بصعوبة كبيرة بعد محاولات . وأمر الساحر الصبي أن يقول للسلطان : « إن سيدي يحييك ويطلب منك إحضار اللورد نلسون . أحضره أمام عيني حتى يمكنني رؤيته سريعاً » فقال الصبي ذلك وأضاف في الحال : لقد ذهب رسول وعاد وأحضر رجلاً يلبس ملابس أوربية سوداء[1] والرجل فقد ذراعه اليسرى . ثم وقف لحظة وقال وهو ينعم النظر عن قرب في الحبر : لا ، إنه لم يفقد ذراعه اليسرى وإنما وضعها على صدره . وقد جعل هذا الاستدراك بيان الصبي أكثر تأثيراً مما لو كان بدونه ، لأن اللورد نلسون كان يعلق كمه الخالي إلى صدر سترته ، ولكنه فقد ذراعه اليمنى لا اليسرى . فسألت الساحر دون أن أبين أنني أتهم الصبي بالخطأ ، إذا كانت الأشياء تبدو في الحبر كما لو كانت أمام العين فعلاً أو كما لو كانت تنعكس في المرآة التي تظهر اليمين يساراً . فأجابني إنها تبدو كما في المرآة . فجعل هذا وصف الصبي صحيحاً[2] .

وكان ثاني من دعوتهم مصرياً أقام في انجلترا بضع سنوات

(١) يسمى المصريون المحدثون الأزرق القاتم أسود

(٢) كنت كلما طلبت من الصبي أن يدعو أحداً انتبه بدقة إلى الساحر وعثمان معاً . فلم يوجه الأخير كلمة أو إشارة ما ، ولقد كان حقاً يجهل مظهر الشخص المطلوب . وقد عنيت ألا يتصل من قبل بالصبيان . وقد رأيت التجربة تفشل عند ما كان يستطيع إرشادهم أو إرشاد الساحر . وقصارى القول أن من الصعب أن يتصور احتياطاً لم أتخذه . ومن المهم أن أضيف أن لغة الساحر كانت أكثر وضوحاً لي منها للصبي ، فبينما كنت أفهمه فوراً كان يضطر أحياناً إلى تغيير كلامه ليجعل الصبي يدرك ما يقول .

غرق ، فإن سبب إعجابنا ليس ما يثيره هذا المنظر من شفقة أو رغب ؛ بل هناك سبب آخر هو استيقاظ عاطفة الجمال والسمو التي هاجتها عظمة المنظر وامتداد البحر واصطخاب الأمواج المزبدة وقصف الرعود المدوية ، ولكننا لا نفكر لحظة في أن هناك بؤساء يقاسون ويألمون وقد يموتون وإلا صار المنظر فظيعاً لا يمكن احتماله

وهناك نظرية أخرى تخلط عاطفة الجمال بالعاطفة الخلقية ، والعاطفة الدينية ، وتضع الفن في خدمة الدين والأخلاق ، وتحيل غايته أن يرفعنا نحو الله ويهذب من أخلاقنا . وهنا يجب أن نذكر تفرقة ضرورية : إذا كان كل جمال يحوي جمالاً خلقياً ، وإذا كان المثال يرقى دائماً نحو اللانهاية ، فإن الفن المعبّر عن الجمال المثالي يطهر الروح ويرفعها نحو اللامتناهي أي نحو الله . فالفن يؤدي إذن إلى كمال الروح بطريق غير مباشر . والفيلسوف الذي يبحث عن المعلولات والعلل يعرف المبدأ الأخير للجمال ومعلولاته الحقيقية والبعيدة ، ولكن الفنان فنان قبل كل شيء ، وما يحييه هو عاطفة الجمال ، وما يريد إيصاله إلى القلوب هو نفس العاطفة التي تملأ قلبه هو . هذه العاطفة هي رباط بين العاطفة الخلقية والعاطفة الدينية ، توقظهما وتحفظهما ، ولكنها متميزة عنهما . والفن المؤسس على تلك العاطفة هو استطاعة غير حرة ، فهو يشارك بطبعه في كل ما يعظم الروح في الأخلاق والدين ، ولكنه لا يرقى إلا بنفسه . وحين يسترد الفن حريته وكرامته وغايته الذاتية ، فإنه لا يمكن فصله عن الدين والأخلاق والوطن ، لأن الفن يقتبس إلهاماته من هذه المنابع العميقة ، كما يقتبسها من الطبيعة . والفن والوطن والدين قوى لكل منها عالمه الخاص ، وبينهما اتحاد متبادل ، فإذا ابتعد أحدها عن الآخرين ضل السبيل . ولكن ذلك لا يجعل الفن خاضعاً لقوانين الدين والوطن وإلا فقد سحره وجماله بفقدانه حريته

واتحاد الفن والدين والوطن لا يضر باستقلال كل منها ، ونتأدى من ذلك إلى أن الفن نوع من الدين . فالله يتضح لنا بواسطة فكرة الحق وفكرة الخير وفكرة الجمال ، وهي ثلاث فكرات متساوية فيما بينهما ، تؤدي كل واحدة منهما إلى الله لأنها تأتي منه . والجمال الحقيقي هو الجمال المثالي ، وهذا الأخير انعكاس اللامتناهي ، وعليه فالفن يعبر في أعماله عن الجمال الأبدي . وكل عمل فني ، إذا كان جميلاً سامياً ، تمثالاً كان أو أغنية ، أو غير ذلك ، يأتي بالروح في حلم عظيم يحملها نحو اللامتناهي . واللامتناهي هو الحد المشترك الذي تتوق إليه الروح على أجنحة الخيال والعقل بواسطة الجمال والحق والخير

أحمد أبو زيد
كلية الآداب

فاتخذ الملابس الأوربية . وكان المرض قد ألزمه الفراش طويلاً قبل إبحاري لمصر ، فرأيت أن اسمه وهو شائع في مصر ، قد يحمل الصبي على الخطأ في وصفه ؛ مع أنه حدث في زيارتي السابقة للساحر أن وصف صبي آخر هذا الرجل ذاته بأنه يلبس ملبساً أوربياً مثل ذلك الذي رأيته به آخر مرة . أما الآن فقد قال الصبي ها هو ذا رجل لف في ملاءة وجيء به على نعش . ويدل هذا الوصف على أن الشخص المذكور لا يزال ملازماً فراشه أو أنه مات[1] . وقال الصبي إن وجهه مغطى ، فقال له الساحر أن يأمر برفع الغطاء . ففعل ثم قال « إن وجهه شاحب ، وله شاربان ولا لحية له » وهذا صحيح .

وقد استدعيت عدة أشخاص آخرين على التوالي ولكن أوصاف الولد لهم كانت ناقصة وإن لم تكن جميعها غير صحيحة . فكان كل وصف يبدو أقل وضوحاً عن السابق كما لو كان بصره ينشى شيئاً فشيئاً . فكان يلبث برهة أو أكثر قبل أن يستطيع أن يصف من يراهم . فقال الساحر إن من العبث إجراء التجربة معه ؛ فجيء بصبي آخر ورسم المربع السحري على يده إلا أنه لم يستطع رؤية شيء ؛ فقال الساحر إنه فوق السن المناسبة .

أدهشتني هذه الأعمال تماماً ، غير أنها خيبت ظني قليلاً لفشلها مرات في حضور بعض أصدقائي ومواطني . وقد سخر منها في إحدى هذه المناسبات إنجليزي من الحاضرين وقال : لا شيء يقنعه غير وصف صحيح لهيئة أبيه إذ كان على يقين من أن أحداً من الجالسين لا يعرف عنه شيئاً . فدعا الصبي والد الإنجليزي باسمه ، ثم بيّن أنه يلبس الملابس الإفرنجية ويضع يده على رأسه ، ويلبس منظاراً ويقف على قدم واحدة ويقيم الأخرى وراءه على نحو ما يفعل النازل من المقعد . وكان الوصف دقيقاً من كل الوجوه . فقد كان وضع اليد على الرأس ناشئاً من صداع دائم ، ووضع القدم من تصلب الركبة لسقوط الرجل عن ظهر حصانه أثناء الصيد . وقد أكد لي الحاضرون في هذه الجلسة أن الصبي أحكم الوصف في كل دعوة . ووصف الصبي مرة أخرى شكسبير شخصه وملبسه وصفاً دقيقاً . ويمكنني أن أضيف إلى ذلك عدة أحوال أخرى أثار فيها الساحر ذاته دهشة معارف الرزناء من الإنجليز . وفي يوم آخر جهز الساحر ، بعد أن قام بالتجربة بواسطة الصبي كالعادة ، المرآة السحرية في يد إنجليزية شابة ، فلم تكد تنظر فيها لحظة حتى قالت إنها ترى مكنسة تكنس الأرض دون أن يمسكها أحد . وتملكها الفزع فرفضت استئناف النظر

قررت هذه الوقائع بعضها من تجاربي الذاتية والبعض الآخر مما وصل إلى علمي عن قوم محترمين . وقد يظن القارئ أن الصبي كان يرى في كل مرة صوراً تنعكس في الحبر ، أو أنه كان متفقاً مع الساحر ، أو أنه يرشد بطريق الأسئلة . كل ذلك لم يكن . أما أنه لم يكن هناك اتفاق فقد تحققت من ذلك تحققاً مرضياً باختيار الصبي الذي قام بالعمل من بين المارين بالشارع ، علاوة على رفضه رشوة عرضتها عليه فيما بعد لحثه على الاعتراف بأنه لم ير حقاً ما كان يقرر رؤيته . وقد امتحنت صدق صبي آخر في مناسبة لاحقة وبالطريقة نفسها ، فكانت النتيجة واحدة . وكثيراً ما تخيب التجربة تماماً ، ولكن عند ما يصيب الصبي القائم بالعمل مرة يستمر في النجاح على العموم ، وعند ما يخطئ بادئ الأمر يصرفه الساحر تواً قائلاً إنه كبير السن . وقد يفترض البعض أن البخور أو الخيال المتأثر أو الخوف يؤثر في نظر الصبي ؛ ولكن لو كان الأمر كذلك لما أبصر تماماً ما كان يطلب من أمور لا يمكن أن يكوّن عنها معلومات خاصة سابقة . ولم أستطع أنا ولا غيري اكتشاف طريق ما ينفذ بنا إلى السر . ورجائي من القارئ إذا كان مثلنا عاجزاً عن إيجاد الحل ألا يدع البيان السابق يثير في ذهنه ريبة فيما يتعلق بأجزاء الكتاب الأخرى[1] .

---

(١) وقد سرني أن أسمع ، بعد كتابة هذا بشهور قليلة ، أن الرجل المشار إليه هنا قد تعافى . ولم أستطع أن أحقق ما إذا كان ملازماً فراشه وقت إجراء هذه التجربة .

(١) لقد طيب خاطري أن أرى رجائي يتحقق . وأود أن أضيف أن الحادث فسر الآن . فقد أشار بعضهم في العدد ١١٧ من مجلة Quarterly Review ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ إلى أن هذه الأعمال كانت تتم بواسطة انعكاس الصور على سطح مرآة مقعرة وإرسالها إلى نظر الصبي على سحب الدخان . على أني لا أستطيع التسليم بذلك لأن مثل هذه الطريقة لا يمكن أن تكون قد استعملت دون أن أراها ، ولا الصورة تنقلب (ما لم تكن الصورة هكذا) باعكاسها على سطح المرآة واستقبالها على سطح آخر ، لأن الصبي كان مطرق الرأس يتفرس في راحة يده ، فلا يمكن أن تتكون الصورة فوق الدخان الذي كان كثيراً وليس كثيفاً ، بين عيني الصبي =

الفصل الثالث عشر

الأقنوم

إن طباع المصريين المحدثين تتأثر إلى درجة كبيرة بالدين والشرع والحكومة ، كما تتأثر بالمناخ وأسباب أخرى . ومن ثم يصعب جداً أن نكوّن رأياً صحيحاً عنها . غير أنه يمكننا أن نقرر بثقة أن المصريين يمتازون أكثر من الشعوب الأخرى ببعض الصفات الذهنية العظيمة ، وبخاصة سرعة الإدراك وحضور الذهن وقوة الحافظة . وهم فى حداثتهم موهوبون على العموم بهذه الصفات وبقوى عقلية أخرى . غير أن الملل السابقة الذكر تحط منها تدريجاً

وليس فى أخلاق المصريين الأصلية ما يستحق الاعتبار مثل الكبرياء الدينية . فهم يعتبرون كل من خالفهم فى الدين هالكين . وقد ذكر القرآن فى سورة المائدة فى الآية الحادية والخمسين : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم[1] »

= والمرآة المزعومة . والصعوبة الكبرى هى وصف الهيئة الصحيحة لأفراد من عامة الناس غير مشهورين كما لاحظت المجلة المذكورة فى مقال ألحق به حاشية غريبة تقدم بعض صور جديدة لهذه الصعوبة . وقد كنت عارفاً لأهم الوقائع المذكورة هناك ، ولكن كان يقتضى الاقدام على نشرها . غير أنه يمكنى الآن أن أذكرها هنا . فقد روى أن سائحين أحدهما مسيو ليون دى لابورد Lénn De Laborde ، والآخر إنجليزى لم أستطع معرفته ، تدربا على يد الساحر عبد القادر ونجحا فى إجراء أعمال مماثلة . وقد أنكر المسيو ليون قطعاً كل مؤامرة للخداع . وأكد أنه لم يفعل شيئاً غير ترديد ماعمله الساحر . ومنذ كتابة الملاحظة السابقة شاهدت مرتين أعمالا يجريها هذا الساحر الحديث الشهرة ، وكانت جميعها فاشلة تماما ، وهكذا كانت جميع تجاربه الأخيرة كما أخبرنى البعض . ومن هنا ومن ملاحظة أبداها لى فى حضور المرحوم اللورد نوجنت Nugent أنه كان ينجح على العموم إذا كان الوسيط عنان مترجه . وقد توفى بعد زيارتى الثانية لمصر . يصعب على أن أستنتج أن الأسئلة المرشدة التى كان يلقيها فى أغلب الأحوال عثمان وغيره ، وهم قوم متعلمون أذكياء ، بدون وعى وأن التخمينات الحاذقة فى أحوال أخرى هى أسباب نجاحه الرئيسية . ولا أستطيع بافتراض الأسئلة المرشدة ، أن أحصى نجاحه فى الأحوال التى كنت أراقبها بنفسى . ولكن هذه كما سبق القول فشلت كثيراً فى حضور بعض الأصدقاء والمواطنين .

(١) وقد نسرت الآيتان السابعة والخمسون والثامنة والخمسون من السورة نفسها سبب هذه الوصية بقولهما : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »

ومن بواعث الأدب أو الصالح الذاتى أن يتحدث المسلم أحياناً إلى المسيحى ، وخاصة الأوربى ، بلهجة كريمة ، وقد يصرح بصداقته وهو يضمر الازدراء له . ولما كان المصريون المسلمون يحكمون على الفرنج بمقتضى ما يظهر من الذين يسكنون مدنهم ، وأكثرهم من شذاذ الآفاق وبقاية البلاد ، فمن الصعب لومهم على ازدرائهم . ويعامل أهل مصر المسيحيين مع ذلك بلطف . فالمسلمون قد عرفوا بالتسامح كما اشتهروا باحتقار الكفار .

ويعتقد المسلم أن التقى يرفع صاحبه ، إلا أن رغبة الظهور بالتقوى تفضى بالكثيرين إلى الرياء . وكثيراً ما يلهج المسلم ببعض الأدعية إذا لم يكن مشغولا بعمل أو تسلية أو حديث ، وإذا أقلقته فكرة أثيمة أو ذكرى شر ارتكبه يصيح متنهداً « أستغفر الله العظيم » . وكثيراً ما يشغل التاجر نفسه فى حانوته بتلاوة القرآن أو بالتسبيح إذا فرغ من مساومة حرفائه أو من تدخين شبكه

(يتبع) عبد الحليم نور

سينما ستوديو مصر
حالياً
فوزى الجزايرلى — إحسان الجزايرلى
تحية كاريوكا
ونخبة كبيرة من أنبغ الممثلين والممثلات وأقدر المطربين والمطربات —
فى فيلم
الستات فى خطر
إنتاج ستوديو مصر إخراج ابراهيم عمارة
سجل تجارى ٢٩٧٣